360 - ـ فصل : شبه في الزهد و بيانها .

رأيت جمهور الناس حائدين عن الشريعة جارين على ما ألفوا من العادة .

و قد يخلص منهم فريقان : علماء و عباد .

فتأملت جمهور العلماء فرأيتم في تخليط منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا و يعرض عن معاملات الآخرة .

و إما لجهله بها أو لثقل أمرها عليه فهو لا يجري على ما يثقل عليه مما يوجبه العلم و يتبع في الباقي العادات .

و ربما تخايل أنه يسامح في الخطايا لكونه عالما و قد نسي أن العلم حجة عليه .

و منهم من هو واقف مع صورة العلم غافل عن المقصود بالعلم و فيهم من يخالط السلطان فيتأذى المخالط بما يرى من الذنوب و الظلم و لا يمكنه الإنكار .

و ربما مدح هو و يتأذى السلطان بصحبته فيقول : لو لا أني على صواب ما جالسني هذا .

و يتأذى العوام فيقولون : لو لا أن أمر السلطان قريب ما خالطه هذا العلم .

و رأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم و ينسون أن اليهود من بني إسرائيل .

و أما الفريق الثاني و هم العباد فرأيت أكثرهم في تخليط أما الصحيحو القصد منهم فعلى غير الجادة في أكثر عملهم قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتبا فيها دقائن قبيحة و أحاديث غير صحيحة و يأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة .

مثل كتب الحارث المحاسب ي و أبي عبد ا الترمذي و قوت القلوب لأبي طالب المكي و كتاب الإحياء لأبي حامد الطوسي .

فإذا فتح المبتدئ عينه و هم بسلوك الطريق بهذه الكتب حملته إلى الخطايا لأنهم قد بنوا على أحاديث محالة .

و يذمون الدنيا و لا يدرون ما المذموم منها .

فيتصور المبتدئ ذم ذات الدنيا فيهرب المنقطع إلى الجبل و ربما فاتته الجماعة و الجمعة و يقتصر على البلوط و الكمثري فيورثه القولنج .

و يقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع أو يأكل الباقلاء و العدس فيحدث له قراقر .

و إنما ينبغي لقاصد الحج أن يرفق أولا بالناقة ليصل .

ألا ترى للفطن من الأتراك يهتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه .

و ربما تصدى القاص لشرح أحوال قوم من السلف و المتزهدين فبتبعهم المريد فيتأذى بذلك .

و متى رددنا ذلك المنقول و بينا خطأ فاعله قال الجهال : أترد على الزهاد ؟ .
و إنما ينبغي اتباع الصواب و لا ينظر إلى أسماء المعظمين في النفوس .
فإنا نقول : قال أبو حنيفة ثم يخالفه الشافعي و إنما ينبغي أن يتبع الدليل .
قال المروذي ؟ : مدح أحمد بن حنبل النكاح فقلت له : قد قال إبراهيم بن أدهم فصاح و قال : وقعنا في بينات الطريق عليك بما كان عليه رسول ا صلى ا عليه و سلم و أصحابه .
و تكلم أحمد في الحارث المحاسبي و رد على سري السقطي حين قال : لما خلق ا الحروف وقف الألف و سجدت الباء فقال : نفروا الناس عنه فالحق لا ينبغي أن يحابى فإنه جد .
و إني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة و صار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم .
فيقال : قال أبو طالب المكي : [كان من السلف من يزن قوته بكرية فينقص كل يوم !] .
و هذا شيء ما عرفه رسول ا صلى ا عليه و سلم و لا أصحابه و إنما كانوا يأكلون دون الشبع .
فأما الحمل على النفس بالجوع فمنهي عنه .
و يقول : قال داود الطائي لسفيان : [إذا كنت تشرب الماء البارد متى تحب الموت ؟ و كان ماؤه في دن] .
و ما علم أن للنفس حظا و أن شرب الماء الحار يرهل المعدة و يؤذي و أن رسول ا صلى ا عليه و سلم كان يبرد الماء .
و يقول آخر منهم : منذ خمسين سنة أشتهي الشواء ما صفا لي درهمه .
و يقول آخر : أشتهي أن أغمس جزرة في دبس فما صح لي .
أتراهم أرادوا حبة منذ خرجت من المعدن ما دخلت في شبهة ؟ .
و هذا ما نظر فيه رسول ا صلى ا عليه و سلم و إن كان الورع حسنا و لكن لا على حمل المشاق الشديدة .
و هذا بشر الحافي يقول : لا أحدث لأني أشتهي أن أحدث و هذا تعليل لا يصلح لأن الإنسان مأمور بالنكاح و هو من أكبر المشتهي .
و كان بشر حافيا حتى قيل له الحافي و لو ستر أمره بنعلين كان أصلح .
و الحفاء يؤذي العين و ليس من أمر الدنيا في شيء فقد كان رسول ا صلى ا عليه و سلم نعلان .
و ما كانت سيرة رسول ا صلى ا عليه و سلم و أصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم .
فقد كان [رسول ا صلى ا عليه و سلم يضحك و يمزح و يختار المستحسنات و يسابق عائشة . [الماء له يستعذب و الحلوى يحب و اللحم يأكل كان و Bه
و على هذا كان طريقه أصحابه فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة و كلها على غير

الجادة .

و يحتجون بقول المحاسبي و المكي و لا يحتج أحد منهم بصحابي و لا تابعي و لا بإمام من أئمة الإسلام .

فإن رأوا عالما لبس ثوبا جميلا أو تزوج مستحسنة أو أفطر بالنهار أو ضحك عابوه .

فينبغي أن يعلم أن أكثر من صح قصده منهم على غير الجادة لقلة علمهم .

حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ما اضطجعت .

و يقول آخر : حلفت لا أشرب الماء سنة .

و هؤلاء على غير الصواب فإن للنفس حقا .

فأما من ساء قصده ممن نافق و راءى لاجتلاب الدنيا و تقبيل الأيدي فلا كلام معه و هم جمهور المتصوفة فإنهم رفعوا الثياب الملونة ليراهم الناس بعين الترك للزينة و ما معهم أحسن من السفلاطون و إنما رفع القدماء للفقر .

فهم في اللذات و جمع المال و أخذ الشبهات و استعمال الراحة و اللعب و مخالطة السلاطين .

و هؤلاء قد كشفوا القناع و باينوا زهد أوائلهم .

بلى : أعجب منهم من ينفق عليهم ! !